المذهب الدروييني واصل الانسان

لحضرة الاب اسكندر طوران اليسوعيّ (تابع)

انتقاد مذهب التحوُّل والترقّي

١ التولد الذاتي

انَّ مذهب التحوُّل وتكوُّن الانواع بالنواميس الطبيعيَّة أدَّى بالمُتَمَذهبين به شاءدروين ام ابي الى نكران العالم الفائق للطبيعة والى جحود الخالق والنفس المجرَّدة عن الهيولي . امَّا اصل الحياة على زعم هؤلاء المنتمين الى المذهب المذكور فهو من التولُّد الذاتي حيث اتَّقدت الشرارة الاولى من الحياة في بعض ذرَّات المادَّة الخالية منها سابقاً . ظهرت صدفةً في خليَّة من الخلايا ثمَّ نمت بعد ذلك وانتشرت

وهنا لا بُدَّ ان نستفتي كبار العلماء عن رأيهم في التولُّد الذاتي . اصحيحٌ هو يا تُرى ما يزعم البعض ان بعض الاحياء مهما كانت صغيرةً تولد دون بزرومة سابقة اي دون التناسل الطبيعيّ . فان ثبت ذلك امكن هكل ان يسند رأيهُ في اصل الحياة الى مبدإ شبيه بالحقيقة يحتل الصدَّة نوعاً . امَّا اذا تبيَّن بطلان التولُّد الذاتي فيسقط مذهب هكل كبناء لا اساس لهُ . وهنا لنا ادلَّة مبنيَّة على الاختبار الذي ينفي كل التأويلات والمماحكات

نقرُّ بان العلماء الاقدمين الى اواسط القرن التاسع عشر كانوا يقولون بحدوث التولُّد الذاتي ساندين زعمهم الى ما نراهُ كل يوم في المواد النباتيَّة والحيوانيَّة التي عند فسادها يظهر فيها الدود ثمَّ يتحوَّل الدود الى ذُباب . واذا فحصتَ تلك المواد بالمجهر رأيت الوف الالوف من الحيَّيونات البالغة الصغر المدعوَّة بالخلَيَّات والميكروبات . فكان العلماء منذ ارسطو الى آباء الكنيسة وعلماء القرون المتأخرة ينسبون هذه المواليد الى التولُّد الذاتي

وقد ظهر بطلان هذا الزعم بما اكتشفهُ وقرَّرهُ بالامتحانات العديدة ذلك الجهبذ العظيم والنابغة الفرنسويّ الكبير لويس پاستور حيث اثبت ان الحيّ ايًّا كان يتولَّد

من حيّ سابق. وهذا المبدأ الجليل اثبتهُ في باريس مجمع العلوم الفرنسويّ بعد ان عيَّن لجنةً من العلماء الاختصاصيين لفحصهِ وبعد ان كثر القال والقيل بين المناقضين لهُ والمثبتين بهِ حتَّى تحصحص الحقّ وزهق الباطل فاعلن المجمع المذكور حكمهُ بما نصُّهُ : « ان الكائنات الآليَّة في حالة ارضنا الحاليَّة تنال حياتها من احياء اخرى سبقتها الى الوجود وليس حيٌّ بينها كبيراً كان او صغيراً الَّا وقد تناسل عن أجداد لهُ سابقة » ثمَّ عاد كاتب اسرار المجمع العلميّ المذكور مصرّحاً بقولهِ : « انَّ الامتحانات التي بلغ اليها العلَّامة پاستور هي ثابتةٌ مقرّرة اذا نكرها احد دلّ بنكرانهِ الى انهُ يجهل القضيَّة جهلاً مطبقاً »

والحقّ يقال انَّ الفضل في اكتشاف هذا الامر وتبيانهِ بالاختبارات المتقنة يعود الى پاستور الموما اليهِ وقد تبعهُ في تكرار هذه الاختبارات اكبر علماء العالَمين فلم يَعُدْ احد يشكّ ببطلان القول بالتولُّد الذاتي. وقد نتجت ايضاً عدَّة معلومات مهمَّة وجدهُ پاستور عن تولُّد الكائنات الآليَّة من جراثيم سابقة. كنسبة الاوبئة الفاشية الى جراثيم حيَّة وكسلامة الاطعمة من الفساد وكاتخاذ الاحتياطات الصحيَّة في العمليَّات الجراحيَّة الخ

ومن هذه الاكتشافات ايضاً تولَّد احد العلوم المستحدثة علمُ الميكروبات او البكتيرولوجيا الذي مبناهُ على هذه الحقيقة « انَّ كلّ جرثومة تنشأ عن جرثومة سابقة من نوعها » . وقد دخلت هذه المعلومات في الصناعة كتربية دود القزّ واختبارات الخمور والجعة والجبن الخ وفي الطبّ لمعالجة امراض شتَّى تصيب الانسان والحيوان والنباتات الزراعيَّة

ليس تولُّداً ذاتياً ! ذلك يعلن بهِ فنّ الجراحة فانَّ الجراحين اذا باشروا عمليَّة ابتدأوا بالاحتياطات التعقيميَّة الواجبة كالماء الغالي والقطن المعقَّم مع تعقيم الآلات الجراحيَّة والعناية بالنظافة التامَّة لئلَّا ينال الجروحَ شيءٌ من أذى الجراثيم السابقة

ليس تولُّداً ذاتياً ! هذا ما يجاهر بهِ الطبّ حيث يبحث عن الميكروب الخاصّ بكل علَّة وعن الوسائل لتخفيف وطأتها ان لم يستطع منع فشوّها

ليس تولُّداً ذاتياً ! قد تحقَّقتهُ فنّ الفلاحة وهذا ما ساعد الفلَّاحين على معرفة الامراض المصيبة للكرمة والبطاطا والعلل الفاشية في دود القزّ والحيوانات الداجنة.

وكثيراً ما سبق العلماء وارشدوا الفلاحين الى الوسائط الكافلة بازالتها ومنع رجوعها

ليس تولد ذاتي كما اجمع عليه علماء الصحة (الهيجين) . ألا ترى كثيرين من الحلاقين يشرون اعلاناً على باب محلاتهم عليه هذه الكلمة «تعقيم» ليطمئنوا زبائنهم ويقيدوهم انَّ ادوات حلاقتهم معقَّمة لا تنقل جراثيم وبائيَّة من وجه شخص الى آخر. فتراهم قبل استعمالهم للموسى يعرضونها على شعلة نار قنديل لاستئصال كل جرثومة ضارَّة . وفي عدَّة بلاد قوانين تقضي على العطَّارين والجزَّارين باتخاذ الوسائل الكافلة بنظافة مبيعاتهم وذلك كلُّهُ لما ثبت عند الجميع بانَّ الاوبئة تنتج عن جراثيم سابقة الوجود

وخلاصة القول انهُ اليوم لم يبق رجل صائب العقل سديد الرأي يذهب الى التولُّد الذاتي اللهمَّ الَّا بعض المادِّيين تأييداً لزعمهم الباطل ويُشار اليهم بالبنان لتأخرهم عن حركة العلوم. وبذلك يسقط بناء المذهب الدروبني المشيَّد على اساس واهٍ فيقضى على الناكرين لوجود الخالق احدُ امرين اما ان يقرُّوا بهِ عزَّ وجلَّ وذلك ما يثبتهُ العلم واما ان يقولوا بالتولُّد الذاتي وينفردوا في رأيهم الباطل عميهين في طغيانهم

ولعلَّ هكل والمتشيِّعين بزعمهِ يدَّعون بانَّ التولُّد الذاتي قد بطل الآن وانما كان جارياً في الاجيال السالفة . هذا كلام بلا سند يرميهِ هؤلاء المتشدقون على عواهنهِ لا يستحقُّ اعتباراً .

وقد حاول الدكتور هكسلي (Hexley) الانكليزي سنة ١٨٦٨ اثبات رأي هكل فادَّعى انهُ وجد في قعر الاوقيانوس مادَّةً اوَّليَّة نشائيَّة دعاها باثيبيوس زعم انَّ الحياة تتولَّد فيها ذاتيًّا . فطبَّل الماديُّون الالمانيُّون وزمَّروا لهذا الاكتشاف اذ رأوا ذاك الهلام المنتزع من اعماق البحار فحسبوهُ اوَّلَ جسم آليٍّ نشأت عنهُ الحياة وانتشرت في العالم. على انَّ فرحهم هذا ما لبث الى ان آل الى خزي وعار واقرَّ علماء الالمان في مؤتمر همبورج المنعقد سنة ١٨٧٦ انَّ العنصر المزعوم عديم الحياة . وفي مؤتمر آخر عُقد في انكلترة سنة ١٨٧٩ اذ حاول احدهم ان يهنئ هكسلي عن اكتشافهِ المزعوم لاصل الحياة قام هذا ورفض تهنئتهُ قائلاً «انَّ الباثيبيوس الذي ظننتهُ مصدر الحياة ليس هو شيئاً سوى راسب سلفات الكلس» . وباقرار هكسلي هذا لم يَعُد احد الى ذكر الباثيبيوس المشئوم

وما يستوقف النظر في هذه الكائنات الدقيقة والجراثيم والحلميات وما يدعوه العموم بالعفونيات انها ليست فقط متولدة من حيويات سابقة بل هي كلها انواع مستقلة ثابتة غير قابلة التحول من نوع الى آخر كما يدعي مشايعو دروين . ومن ثم يجب نبذ اراء الماديين وزاعمهم الباطلة في تولد الحياة ذاتيًا في بعض دقائق المادة وانتشارها تدريجًا في بقية الكائنات بتحولها من نوع الى آخر . وان صح ذلك في الوالد السفلى فما قولك بالنفس الانسانية ذات النطق والادراك أفيستطيع هكل وانصاره ان يرقوا أصلها الى المادة الجامدة . فليخزَ هؤلاء جحدة اللاهوت الذين لم يلتجئوا الى التولد الذاتي الا ليخلصوا من تكوين الخالق ويتنصلوا من تبعة واجباتهم نحوه تعالى كما اقرّ بذلك هكل حيث قال : « لا مناص لتعليل وجود الحياة من احد امرين او القول بالتولد الذاتي وتحول المادة الآلية بتمادي الزمان او الاقرار بالاعجوبة (يريد بالاعجوبة تكوين الخالق للكائنات) . هذا ما كتبهُ دي سوري (de Soury) في شرحه مذهب هكل . ومرجع قولهم الى هذا المبدأ الغريب « اننا معشر الماديين في حاجة الى إثبات التولد الذاتي فنفضل القول بالمستحيل من الاقرار بوجود الله » زه ! زه

٢ الانتخاب الطبيعي

سقطت ترهات هكل في قدم المادة واصل الحياة الطوعي وما حمله الى مزاعمه الباطلة سوى بغضه لما يفوق الطبيعة . وفي ما سبق الكفاية لردّ ترهاته

ولعلّ سائلًا يطلب منّا قائلًا : « لقد ثبت لدينا بطلان اقوال هكل . ولكن ألا يمكن يا تُرى الانضواء الى مذهب دروين بقولنا معهُ انَّ الله خلق بادئ بدء بعض الانواع التي تحوّلت بعدئذٍ الى انواع أخرى ؟ او يوجد في هذا الرأي شيء ينافي الايمان المسيحي او يردُّهُ العقل الصائب أو ليس هو بالحري رأيًا راجحًا ؟ وما هو مبلغ رجوحه ؟ وهل يجوز ان نُعير بالًا لتلك العوامل التي يدعم عليه دروين رأيهُ اعني النزاع لبقاء الحياة وحاجة الكائنات الى بعض الاعضاء وعمل الوسط والوراثة وهلم جرًّا ؟ وهل اثّرت تلك العوامل الزعومة في احوال النبات والحيوان الى ان ثبتت اخيرًا على الانواع التي نعرفها اليوم ؟ وخلاصة القول اذا نفينا زعم هكل في قدم المادة ونكران الخالق هل من داعٍ لقبول مذهب دروين وانصاره الذين يقرّون

بوجود الخالق وانما يحصرون فعلهُ في تكوين بعض الامثلة الاوليَّة النباتيَّة والحيوانيَّة التي منها تولَّدت بفعل الزمان كلّ الانواع ؟

وهنا يجب تكرار ما سبقنا الى ايرادهِ اعني انَّ الاسفار المقدَّسة لم تصرِّح بشيء ينفي اصلًا مذهب دروين اللهمَّ الَّا ما يختصّ بتكوين الانسان . وكذلك الكنيسة لم تبتّ حكماً في المسائل العلميَّة التي لا مناط لها بالدين وبعقائدهِ . لا مراء في انَّ الله هو خالق المواليد الثلثة الجماد والنبات والحيوان ولكنَّهُ تعالى امكنهُ ان يخلق جملةً او تباعاً بعض الامثلة النباتيَّة والحيوانيَّة فمكَّنها حسب الظروف ان تنتج بقوَّتها انواعاً جديدة على كرور الدهور فهذه القوَّة المودعة في الاصول الاوليَّة تعود اليهِ تعالى كما يجب ان تُنسب اليهِ الانواع والتحوُّلات الناجمة عنها

فبعد هذه المقدَّمات علينا ان نوضح رأينا في مبدأ دروين المتوقف على الانتخاب الطبيعي

اعلم انَّ دروين لاثبات قولهِ في فاعليَّة هذا الانتخاب الطبيعي استند الى ما يناله الانسان بحذقهِ من الانتخاب الصناعيّ اذ يوفِّر اصناف النوع الواحد من النبات والحيوان الداجن . وقد بيَّنا سابقاً كيف اتَّصل الانسان بتوقُّد ذهنهِ وحسن نظرهِ الى ان يستخرج من بعض الانواع ضروباً جديدة من الزهور الزاهية والاثمار اللذيذة والجذور الغذائيَّة . كما انهُ توصَّل الى توليد صنوف عديدة من الحمام والدجاج والكلاب والخيل والشاء الخ وذلك بالتربية اعني باجهاد فكرهِ في اتخاذ الوسائل لهذه الغاية لاسيما حسن انتخابهِ للمولَّدين . فاذا بلغت هذه الكائنات الى بعض الصفات التي قصدها الانسان ثبتت فيها واورثتها نسلها . فليت شعري ماذا يستطيع الدرويينيُّون ان يستنتجوا من ذلك غير هذه النتيجة الواضحة وهي قدرة الانسان بذكائهِ على تربية الحيوان او النبات ليصدرا بهيئتهِ بعض خواصّ ثانويَّة عرضيَّة ليس الَّا . ولكن هيهات ان يستولد بذلك نوعاً جديداً قائماً بذاتهِ ثابتاً في نسلهِ

وما يدلُّ على انَّ هذه التحوُّلات الناتجة عن عقل الانسان وهيئتهِ هي عرضيَّة انَّك لو تركت هذا النبات وهذا الحيوان بعد تربيتهِ الى غريزتهما الطبيعيَّة واهملت تربيتهما تراهما بعد حين يعودان الى حالتهما السابقة وينفقدان الخواصّ المكتسبة . فدَعْ مثلًا البقر والخيل في البراري هُمَلًا كما يفعل الاميركيُّون في مفاوزهم والمتغوليُّون في

صحاريهم القاحلة تجدها بعد ردحة من الدهر مستوحشة نافرة

فان كان الانسان مع كلّ حذاقته وافراغ مجهوده واتخاذه ما لديه من الوسائط لم يستطع حتّى الآن ان يستولد نوعاً جديداً ثابتاً فكيف تستطيع الطبيعة العمياء المهملة لذاتها ان تدرك بقوّة سحريّة هذه الغاية فتستولد عدداً لا يُحصى من الانواع والفصائل مع ما فيها من النظام العجيب وما لكل منها من جميل التركيب. فلو كان لهذه النباتات ولهذه الحيوانات ما يترجّمهُ فيها مشايعو دروين لأمكنها ولاسيّما بمساعدة الانسان ان تُظهر شيئاً من تلك التحوُّلات النوعيّة الثابتة التي يدّعونها لها. وحتى اليوم خابت آمالهم فيها. فان كان الانتخاب الصناعيّ عجز عن ذلك فكم بالحري الانتخاب الطبيعيّ المزعوم

وان ذهب الدرويْنيُّون الى أنّ الطبيعة في سالف الدهور كانت في توليدها للانواع اقوى منها في زمننا الحاضر أجبنا انّ لدينا آثارًا من التاريخ واجغرافيّة راقية الى الوف من السنين وكأنها تنبئ بانواع ثابتة وتنفي كلّ تحوّل وترقّ. ادخل مثلاً مدافن مصر التي يرقّي العلماء اصلها الى ستّة آلاف سنة تجد فيها ما لا يُحصى من مخطّطات المصريين بينها جُثث ماركهم واعيانهم وجثث حيوانات شتّى اهليّة ووحشيّة وضروب النباتات فلا فرق بينها جميعاً وبين المواليد الشائعة منها اليوم في انحاء وادي النيل

وكذلك التصاوير البديعة التي نقشها المصريّون على جدران تلك المدافن تمثّل اجناس الحيوان كالكلاب مثلاً بينها كلاب الصيد والكلاب البيتيّة وكلاب الرُّعاة لا تختلف البتّة عن اجناسها الحاضرة كأن هذه بعض مواليدها في الامس لا تمتاز عنها بايّ خاصّة نوعيّة كانت

على انّ الدروينيين فراراً من هذه المشاكل العويصة يزعمون انّ هذه التحوُّلات النوعيّة حدثت في دهور عريقة في القدم وذلك ببطء وبتنوع غير محسوس. فهلمّ نفحص تلك الدهور ومواليدها فلا شكّ انها تُفحمهم بلسان حالها

اكتشف الاثريّون في اعماق الارض قبوراً سبق عهدُها طور زمن التاريخ فلقوا فيها اصدافاً برّيّة وبحريّة اذا قابلت بينها وبين ما يُرى بجوارها حاضراً لا تجد فيهما اختلافاً. وبعض العلماء يزعمون انّ تلك القبور ترقى الى ٢٠٠،٠٠٠ سنة بل الى ٣٠٠،٠٠٠ سنة وهيهات ان نسلّم لهم باقوالهم ولكن كفى بظنونهم هذه لردّ مبدأ

الترقي والتحوُّل اذ في كلّ هذا العدد من الدهور لم يحصل تحوُّل في تلك الاصداف

وكذلك النبات فقد وجدوا في سويسرة في طبقات الارض السفلى انواعاً من الشجر دُفنت فيها في الطور الجليدي الذي سبق وجود الانسان على الارض بالوف من السنين . وهذه الاشجار لا تختلف قط عن شجر سويسرة حاضراً بينها البندیان والشربين والسَّرو والصنوبر والبندق المعروفة في زماننا في اواسط اوربَّة

وقد روى الجيولوجيُّون الذين درسوا في عهدنا طبقات الارض انَّ قسماً عظيماً من النباتات والزهور التي نعرفها اليوم قد وُجدت ايضاً في العهد الجيولوجي المعروف بالميوسان (miocène) وهو القسم الاوسط من الطور الثالث . وكذلك وجدوا حيواناتنا الحاضرة في القسم الاخير من ذلك الطور وهم يعرفونهُ بالپليوسان (plio-cène) . وليس فرق بين القديمة والحاضرة الَّا انَّ بعض حيوانات ذلك العهد قد تلاشت وفنيت اليوم . امَّا ما بقي منها فانَّ انواعها كانواع زَمننا الحاضر . فهذه الوف من السنين كما يطلبها الدرويئيُّون فاين ما يشيرون اليه من الترقي واستحالة الانواع ؟ فمذهبهم اذن لا سند لهُ ابتدعَتهُ مخيلتهم ولا يفيدهم القول بالانتخاب الطبيعي كما لم يستفيدوا من التولد الذاتي . نعم أنَّنا نوافقهم على مفاعيل العوامل المختلفة كالغذاء والمناخ في إحداث بعض التغييرات العرضيَّة المنحصرة في الحجم واللون والخلق الخ لكنَّ هذه التغييرات لا تبلغ الى تحويل نوع الى نوع آخر

انظر الى جنينتك حيث جمعتَ ضروباً من الزهور من عدَّة اشكال ومن بلاد مختلفة ترَ فيها صنوفاً يابانيَّة واميركيَّة ومن جنوبي افريقيَّة وكذلك النباتات الغذائيَّة . فانَّها تكيَّفت كلها بكيفيَّات خفيفة عرضيَّة على حسب هواء بلادها الاصليَّة لكنَّها لم تغيِّر نوعها على الاطلاق . وكذلك ترى في كلّ قارَّة وفي اعراض كل بلاد انواعاً خاصَّة من النبات والحيوان لا تجدها في غيرها من الجهات الَّا ان ذلك ليس برهاناً على ان تلك الانحاء هي ولَّدت تلك الانواع المختلفة

ولو ثبت انَّ هذه الانواع الخاصَّة ببعض البلدان تتحوَّل الى انواع اخرى بنقلها الى غيرها من الاقليم لاستطاع الدرويئيُّون ان يتَّخذوا ذلك دليلاً على زعمهم لكنَّ الامر ليس كذلك فان اشجار اوستراليا واميركا وزهور الصين واليابان وبقول افريقية الجنوبيَّة تبقى على نوعها اذا نُقلت الى اوربَّة ولا يطرأ عليها سوى بعض

الاختلافات العرضيّة . ومثلها المواشي الاوربيّة التي نُقلت الى اوستراليا والى زيلندة الجديدة فانّها بقيت على خواصها دون تغيير يذكر

خذ بذور كل النباتات وازرعها في ايّ البلدان تشاء تجد انّ بعضها ينشأ وينمو على شكلهِ من نبات او شجر ثمّ يأتي بثمره الخاصّ ويتوطّن مكان زرعهِ والبعض الآخر ينشأ ضئيلًا ضعيفاً ثم يتلف قبل ان يثمر ومنها ما لا يكاد ينبت ولا ينمو . والسبب في هذا الاختلاف انّ لكل نبات مزاجهُ الخاصّ فيحتاج لينمو الى تُربةٍ تناسبهُ والى عَرْض من البلاد يوافق مزاجهُ من برد او حرارة او رطوبة . فالبذور التي تزرعها تتكيّف بكيفيّات الارض التي تقع فيها . ويحصل هناك ضربٌ من الانتخاب الطبيعيّ فلا تربّي كلُّ تربةٍ غير المزدرعات المناسبة لطبعها واحوالها . وشتّان بين هذا الانتخاب الطبيعي والانتخاب الدروينيّ الذي يدّعي ببروز انواع جديدة . وبذلك تحبط كلّ آمال الدرويتيين الذين ينسبون الى الطبيعة العمياء والى الصدفة نتائج لا يقوى عليها العقلاء . يريدون انّ الصدفة في توالي الاجيال استخلصت بين الانواع الاوّليّة ما رأتهُ ملائمًا لطبيعتها ولم تزل هذه الانواع تترقّى وتتحسّن الى ان تصير انواعاً جديدة . وكل يعلم ان الصدفة والنظام على طرفي نقيض فحيثما يوجد نظام وترتيب وهندام فهناك عامل فهيم ناطق وهو الله سبحانهُ وتعالى يظهر قدرتهُ غير المتناهية وسموّ عقلهِ في اصغر الكائنات بما يودعهُ فيها من هذا النظام العجيب

وفي المذهب الدروينيّ تناقض آخر فهو يزعم من جهة انّ انتخاب الانسان الصناعي للنبات والحيوان من شأنهِ ان يحدث في الطبيعة انواعاً جديدة . وبقولهم هذا يعترفون بان تكوُّن الانواع الجديدة يمكن حدوثهُ في ظرف ستّة آلاف الى عشرة آلاف سنة اعني بعد تكوين الانسان . ومن جانب آخر اذا انكرنا على دروين ومشايعيهِ عدم حدوث هذا التحوُّل النوعيّ في قديم الزمان واثبتنا قولنا الى الآثار التاريخيّة والى حفص الطبقات الجيولوجيّة ورقيمها هكذا الى الازمنة السابقة للتاريخ دون وجود تغيير في النبات والحيوان القديمين وبذلك تُبكم افواههم يجيبوننا قائلين انّ تغيير الانواع لا يحدث ببضعة الاف من السنين لا بدّ لذلك من سياق اجيال عديدة سبقت عهد الانسان بمدّة طويلة . وبذلك يظهر تناقضهم بنوع جليّ . فترى ان المذهب الدروينيّ في مزاعمهِ يتبع تخيُّلاتهِ واوهامهُ ويحيد عن البراهين المؤيّدة بالعلم الصحيح

٣ رأي الجيولوجية والعاديات الارضية في المذهب الدروبني

رأيت ان المتمذهبين بالمذهب الدروبني لم يجدوا مناصاً من تفنيد رأيهم في التحوُّل والترقي الّا بان ينسبوا ذلك الى الاعصار السالفة وفي زمن الاطوار الاولى من تركيب ارضنا . فلنستفتِ اذن ما خلّفتهُ لنا تلك الاجيال الاولية لعلّها توقفنا على صحّة الامر

فلنعد الى تلك التاحف التي سبق لنا ذكرها حيث جُمعت كل مواليد الطبيعة النباتيّة والحيوانيّة ونُظمت بترتيب على حسب اجناسها وانواعها وضروبها المختلفة المعروفة منذ اوائل تكوين ارضنا الى يومنا فيشملها النظر في تسلسلها وترتيبها الاصطلاحيّ . وانّا نعتبرها نحن ليس على صورة شبهها هذا ولكن على حسب قدمها فنجعل في رأس كلّ جنس وكلّ نوع اقدم ما يُعرف منهُ ثم نضمّ اليه ما اكتُشف من امثالهِ قديماً ثم حديثاً بالتوالي الى يومنا

فان كان المذهب الدروبني صحيحاً وجب ان يكون اقدم مولود من كل جنس ومن كل نوع أبسط تركيباً ثم تأتي بعدهُ الافراد المتولدة منهُ بالتدريج أرقى بنية وألطف تركيباً الى ان تبلغ الى المواليد العصريّة التي يجب على رأي دروين ان تكون في اوج الكمال غنيّة بما ورثتهُ من اسلافها السابقين . فبناء على ذلك هذا جدول النباتات التي اكتشفها الطبيعيُّون على حسب قدمها في طبقات الارض :

١ بعض اصناف الحتّ البحريّ (algues marines)
٢ الخنشار (fougères) الجباري المتحجّر في الطبقات الفحميّة وقد درست اثارهُ
٣ اشجار عادية مخروطة الشكل (cicadées, conifères) تشبه اشكالها المعروفة اليوم
٤ اشجار ذات الفلقة الوحيدة (monocotylédonées)
٥ اشجار ذات فلقتين (dicotylédonées)

وان اعتبرنا بين الحيوان اصنافَ الطيور وجدنا اقدمها في التاريخ وفي الطبقة الارضيّة الثانويّة طيوراً جبّارية مسنّنة ليس الّا . ثمّ في الطبقة الارضيّة الثالثة وُجدت عدّة طيور مختلفة خالية من الاسنان لم يبق اليوم من اشكالها الّا النزر القليل . اما طيورنا الحالية الشائعة في زماننا فلا يظهر منها شيءٌ قبل الطور الجيولوجي الرابع وهي تخالف انواع الطيور السابقة وليس علاقةٌ بينها جامعةٌ لحلقات طور مع آخر

وكذلك الحيوانات ذات الثدي قد وجدوا منها بعض الامثلة في طبقة الارض الثانوية مما ذهبت آثاره حاضراً. ثم وجدوا في طبقة الارض الثالثة انواعاً من ذوات الثدي وكلها بالغة الضخم كبيرة الحجم يدعونها مستودُنت وباليوثيريوم وغير ذلك وكلها طمست آثارها في الطور الرابع

وخلاصة القول انَّ في طبقات الارض المختلفة عدَّة نباتات وحيوانات توالت على سطح الارض الَّا انها ليس بينها علاقة تمكّن الدرويينيين من القول بأنها تحوَّلت تباعاً وترقَّت فاصبحت بترقيها انواعاً جديدة

فلو شاء الدرويينيُّون ان يقنعوا الناس بصحَّة رأيهم في تحوُّل الكائنات وترقيها لاقتضى عليهم ان ينظِّموا انواع كلّ جنس ويثبتوا ان ابسطها تركيباً اقدمُها وان في سياق ظهورها على الارض زادت اختلافاً ورقياً جيلًا بعد جيل وانهُ لم تظهر فوراً في اطوار الاجيال امثلة جديدة كاملة مخالفة للامثلة السابقة بل ارقى تركيباً من الانواع التي ظهرت من بعدها وانَّ بين الانواع الحاضرة والانواع الاصليَّة سلسلةً منظومة الحلقات دون انقطاع تترقّى صورها تدريجاً الى غاية كمالها

وكلّ هذه المطالب قد عجز عن تبيانها دروين وهكل وكلّ انصارهما ولم يستطيعوا قطّ ان يثبتوا هذا ترقّي الانواع واختلافها

سبق لنا في جدول النباتات انَّ اقدم ما يعرف منها انواع الحتّ البحريَّة (algues) ثمّ بعد زمن طويل ظهرت اشجار باسقة عاديَّة تحوَّلت بمدنفر الى مستودعات فحمنا الحجري الدفونة في باطن الارض والمستخرجة منهُ في عهدنا . فليقل لنا الدرويينيُّون اي علاقة يرونها بين الحتّ وبين هذه الاشجار الجبَّاريَّة واين النباتات المتوسّطة بينهما؟

وكذلك الموالد الحيوانيَّة . كيف ظهرت تلك الطيور الكبرى ذوات الاسنان القاطعة دون ان يسبقها طيور اخرى مهَّدت لظهورها السبيل ؟ ومثلها تلك الحيوانات ذوات الثدي البالغة الضخم والحجم التي ظهرت في الطور الجيولوجي الثالث فاين الحيوانات التي أعدَّت وجودها بالتحوُّل والترقّي وما السبب لظهور ما هو ادنى كمالًا منها بعد فنائها على عكس المبدأ الدرويينيّ ؟

وقس على ذلك حشرات صدفيَّة مستحجرة كالأمونيت (Ammonites) التي وُجد منها في الطور الجيولوجي الثاني ازيد من اربعة آلاف نوع . وكفصيلة البلنيت

(Belemnites) العديدة الاشكال والانواع . وكلها لم يبق منها اثر في عهدنا فكيف لم تترقَّ وتتحوَّل الى انواع جديدة على مقتضى المذهب الدروينيّ ؟

فترى انَّ الجيولوجية تنفي المذهب الدروينيّ نفياً حيث نرى بتمادي الاجيال انواعاً من النبات والحيوان كاملة الأهبة تامَّة البنية تعيش على الارض في طور او طورين من الاجيال ثمَّ تفنى عن كثب دون ان تبقي نسلاً اكمل منها بعدها . وكذلك تلك الطيور الغريبة الشكل والبالغة العظم وتلك الزحافات الهائلة التي تُرى آثارها في طبقات الارض قد توارت وقام بعدها طيور وزحافات صغيرة الحجم متوسطة العظم . وكلّ ذلك مخالف للمبادئ الدروينية

ومما ينقضها ايضاً وجود انواع عديدة حيَّة معروفة في عهدنا كالحيوانات المتوسطة بين النبات والجماد كالاسفنج والاصداف النجميَّة الشكل والبطليموس فهذه وغيرها موجودة آثارها في اقدم ما نعرف من مستحجرات الاطوار الاولى فبلغت عهدنا دون ان يطرأ عليها تغيير في كيانها وصورتها . ولو صحَّ رأي دروين لوجب ان نجد فيها ترقياً متواصلاً منذ تلك الادهار السالفة الى اليوم . وليس شيء من ذلك

فكل هذه الدلائل تبيّن لذوي العقول الراجحة انَّهُ ليس علاقة يُبنى عليها تطوُّر معظم الانواع . فان الفحص الجيولوجي يثبت لنا ليس فقط انواعاً واجناساً تامَّة من الحيوان والنبات بل رتباً وفصائل مستقلَّة ليس قبلها ولا بعدها ما يتَّصل بها او يتبعها بعد ظهورها

وحبَّذا ما قالهُ الجيولوجيّ العصريّ الكبير السيو دي لاپاران (de Lappa-rent) السابق ذكره : « انَّ الحياة استولت على ارضنا تقريباً فجأةً على قدر ما يمكننا القطعُ به بظهور كائنات جامعة منتهى كمالها الموافق للاحوال المحيطة بها »

وان لم يقنع الدروينيُّون بهذه البيِّنات الساطعة والحجج الراهنة اتينا لهم باقرار دروين نفسهِ الذي شعر بتداعي مذهبهِ وسقمهِ قال في كتابه عن اصل الانواع كما رواهُ الاب ڤيكررو : « ان بنية كلّ حيوان محدودة منظَّمة بكل تدقيق بحيث لا يجوز لنا في حالة علومنا الحاضرة ان نتَّخذ تركيبها كحجَّة لاثبات ما نرويهِ من التحوُّل في انواعها المختلفة من ذوات الفقرات الى الحلقيَّات ومن الهلاميَّات الى السيلنتريات (Cœlentères) وذلك ليس في عهدنا فقط بل في كلّ اطوار التاريخ

التي يبحث عنها الجيولوجيُّون ... ليس لنا برهان وضعي ثابت يجوز لنا ان نركن اليهِ اللهمَّ الَّا بعض دلائل غير كافية لتبيان التحوُّلات التدريجيَّة في انواع الحيوان... نعم اننا نجد في كلّ فئة بنوعٍ جلي اختلافات عديدة الَّا اننا ما نطلبهُ فيها من الترقي لا يظهر فيها مطلقاً»

فهذا الكلام إقرارٌ واضح على انَّ المزاعم الـدروينيَّة اوهام وتخيُّلات لا صحَّة لها في الطبيعة وانما هي كالبرق الخُلَّب او كالسراب في الصحراء او كاضغاث الاحلام ينخدع بها الناظر برهةً ثمَّ لا يلبث ان يقف على حقيقة الحال فيزيد اسفهُ على ما أمَّل منها خيراً فكان ضيراً (لهُ صلة)

رحلة حديثة الى الشهباء

للاب لويس شيخو اليسوعي

حلب احدى عواصم سوريَّة الكبرى لها مع بيروت ودمشق التقدُّم على سواها من مدن الشام . وقد زرناها سابقاً ونوَّهنا في المشرق غير مرَّة بعظم شأنهـا وحسن آثارها ومناقب سكانها

على أننا كنَّا نودّ ان نقف على ما استجدَّ في الشهبـاء في هذه الحقبة الاخيرة فندوّن على صفحات المشرق ما يستحقُّ الذكر مما جرى فيها واذا بأمر من ورسائنا اننا بغتةً لنذهب اليها لبعض الشؤون الدينيَّة فانطبق امرهم مع رغبتنا

ركبنا القطار في بيروت في مساء يوم الاحد الواقع في ٢١ تموز وما لبثنا ان شعرنا في مشارف لبنان بريحهِ البليل فنسينا حرَّ سواحلنا اللافح . وفي سحر النهار بلغنا رياق حيث انتقلنا الى قطار حلب الواسع الاسلاك ذي المراكب الرحبة المريحة

عشر ساعات وازيد من ٣٠٠ كيلومتر تفرق بين رياق وحلب فيقضي الراكب صاحب نهارهِ في مركبته يسرح الابصار من نوافذها الى مدن عامرة كبعلبك وحمص وحماة والى قرى خصبة كرأس بعلبك وقصير وحميديَّة ويسرُّهُ النظر الى قمم لبنـان مع بعض الثالج التي لم تقوَ اشعَّة الشمس على تذويبها والى وادي العاصي وبساتينهِ الغنَّاء